

دُرِّ نَافِي الْكُفَّاحِ الْوُطْنِيِّ

بقلم

محمد أبو الحسن
بالأزهر الشريف

obeykandi.com

تمهيد

وضعت الحرب الكبرى الثانية أوزارها ، وانقست الأمم الغالبة والمغلوبة سلاحها وسكنت أصوات المدافع والبنادق ، وابتدأ كل شيء ساكناً في جميع الميادين بعد أن بادت الفاشية بالهزيمة ورجعت من الميدان بالخذلان - ولكن لا يسكت دولا ب النزاع ، ويقف صوت المذيع ، بل يشهد العالم ويسجل التاريخ : لو أننا آخرون ألوان الحياة ، بدخول الأمم جمعاء - في الأقطار المتقدمة والمتأخرة القوية والضعيفة - في مرحلة أخرى من مراحل النضال والكفاح . . . نضال مهمل مختلف مظاهره ، وتنوعت أشكاله ، وتعددت أسماؤه ، فإنه متحد في الغاية ، متفق في النهاية لاتفاقه في الهدف وهو تحرر الإنسانية من آلام العوز ومخاوف المرض ومصائب الجهل ، والانطلاق من القيود التي فرضتها الأنظمة الرجعية البالية .

على أننا لا نستطيع أن نفرق بين نضال العالم وكفاحه بنضه عن بعض إلا في الظاهر فقط ، حيث نرى نضال الأمم القوية يتمثل في اتجاهين متباينين ، يميني ويساري رجعي وتقدمي ، ينظر أحدهما إلى العالم نظرة إنسانية عالية ، تدفع به إلى الامام ، كي تنتهي مجازر الحروب وتنقطع أوصال الاستعباد بيننا والثاني لا يعبأ بالقيم الإنسانية ولا يقيم وزناً للدماء التي أراقها البشرية طوال السنين الماضية في سبيل تحررها فيعمل جاهداً لاعادة عجلة الحرية عن الاندفاع

أما في الأمم الضعيفة وتلك التي يسودها الاستعمار الاوربي والامريكي فيمتاز نضالها عن غيره بطابع الوطنية ، واستعمال الكفاح ضد تدخل الاجانب والمستغلين فتطالب بحق تقرير المصير ، وإقامة الحكم الذاتي في بلادها ومنع السيطرة الاجنبية والتفوذ الغريب ، حتى تتمكن من ان تعيش كما يجب ان يعيش الانسان

على أن هذه التفرقة التي يمتاز بها الصراع بين الأمم الضعيفة والقوية ما هي الا ظاهرية كما قدمنا . أما في الواقع فالارتباط وثيق والصلة محكمة ، بين نضال الشعوب قويا وضعيفا ، على تباعد أجزائها وتباين ألوانها . . . أي أن نضال الطبقات الشعبية في البلاد المستعملة القوية مرتبط أشد الارتباط بنضال شعوب المستعمرات والدول

غير المستقلة ونحن نلاحظ من تتبعنا لكفاح الأمم في مراحلها المختلفة أن الغاية التي تسعى إليها البشرية هي الحرية...

والحرية بمعناها العام تشمل التحرر من كل شيء يخيف الإنسان سواء كان ذلك مرضاً أم حرباً . جهلاً أم فقراً ، وبالجملة يشمل التحرر من كل ما يعكر صفو الحياة ولا يوجد شيء يعيق الإنسانية عن بلوغ هدفها . والوصول إلى غايتها ، مثل الاستغلال وهو في مظهره الوقوف في طريق الطبقات الشعبية ومنعها من أن تمارس حقها اللائق بكدها وتنعم بحياة سياسية واقتصادية تساوى ما تبذله من عرق ودماء !

أما مشا كل الشعوب الضعيفة والبلاد المستعمرة ونصف المستعمرة فهي الفقر والجهل ، والمرض الناشئ عن النظم القطاعية وشبه القطاعية ... التي يكسر الاستعمار بعض أجزائها ويبقى على معظمها حتى تظل البلاد المستعمرة في تأخر اجتماعي يمكنه من استغلالها واستنزاف مواردها فنضال هذه البلاد إذن نضال ضد الاستعمار ، ولكنه نضال ضد بقايا القطاع والاشكال الاجتماعية الرجعية الأخرى . سواء كانت في الاقتصاد أو السياسة . بهذا يلتقي صراع الشعوب ضد ظالمها ، ويتقابل كفاحها ضد العقبات التي تقام عمداً في طريقها . وتتحد في استهداف القضاء على الاستعمار لانه من أكبر اسباب التفرقة بينها ومن أشدها أثارة للحروب والمنازعات .

ولقد يدرك القارىء من هذه الكلمة الموجزة صدق النظرية الماركسية وعمقها ، تلك التي ترى العالم وحدة متمازجة تتأثر كل بقعة منه . بعدت أو قربت . بالاحداث والحركات التي تدفع أى جزء من أجزاء العالم . فعنايتنا بالحركات الحرة في غير بلادنا وتأيدنا لها ، عناية بقضيتنا نحن وتدعيم لكفاحنا الخاص بنا .

ومهمة الكاتب المصرى الحر أن يدرس الانعكاسات الواقعة من ظاهر المجتمع المصرى ليعين المتناقضات التي يسير عليها ، وإظهار تداخلاتها ، والكشف عن أوجه الانحلال والفساد فيه للقضاء على أسبابها ، واستئصال جذورها وكافة أنواع الطغیان والاستغلال ، والانتقال بالقضية المصرية من الميدان الخاص الى الميدان العالمى ، وربط هذا الكفاح بما في العالم من نضال وكفاح ، والانتقال بمشاكلنا من وضعها الحالى إلى جعلها جزء من كفاح العالم في سبيل التحرر

ولقد رأيت أن رجال الدين المصريين عامة . وطلبة الازهر الشريف خاصة
أحوج ما يكونون إلى الخروج من العزلة القاتلة التي يعيشون فيها... وأجدر ما يكونون
بأن يتعهدوا الرسالة الفكرية التي نيطت بهم تعهدا صحيحا سليما .. لذلك رأيت أن
أشرح بعض الجوانب من الأوضاع العالمية والمحلية وأبين دور رجل الدين من هذم
الصراع الدائم ، وادعوه إلى أن يقبل على مسئولياته الوطنية وواجباته العامة بوعى
سليم وادراك نافذ وشجاعة فكرية ... أن رجال الدين من صميم هذا الشعب ... لم
يخلقوا فى معزل ولم يولدوا فى صوامع ... أنهم اما مع الشعب حقا يحسون آلامه
ويؤمنون بآماله ، لأنهم من جماهيره المخلصة ، وأما منضمون إلى صفوف أعدائنا ،
ومطويون تحت لواء المستعمر .. فليس هناك مجال اذن للحيدة أو الانعزال ...
على أننا سنستعرض — قبل البحث فى الحركات التحريرية المصرية — أنواع
المصارعات والحركات القائمة فى بقية العالم ، لنعطى صورة عامة .
وقد كان لتضارب القوى الاقتصادية والسياسية أكبر الاثر فى خلق هذا الصراع
الذى تشهده الانسانية اليوم بين معسكرات العالم المتباينة والذى يتمثل فى المصارعات
التي سنتحدث عنها فى الفصل القادم .

الصراع بين اجزاء الاستعمار العالمى

(١) الصراع بين الاستعمار الانجليزى والأمريكى

تكاد تكون الظاهرة الأساسية التى يمتاز بها هذا الصراع ، أنه صراع بين قوتين رجعتين كبيرتين . فأمريكا الشمالية وصلت فى هذه الحرب إلى مرحلة كبيرة من الانتاج تعد أخطر مرحلة فى تاريخ الدولتين الرجعتين ، وهى الحالة التى يعبر عنها ماركس بقوله «إن مجتمعا وصل إلى هذه الدرجة الفضخمة من وسائل الانتاج والمبادلة ليشبه الساحر الذى لم تعد له قدرة السيطرة على قوى الجحيم التى أحضرها بدعائه ، فقد زادت القوى الانتاجية زيادة كبيرة ونمت وسائل الانتاج والمبادلة نموا لم يسبق له مثيل فى تاريخ الانتاج الرأسمالى حتى أصبحت كلتا الدولتين على شفا أزمة اقتصادية جارفة تحاول كل دولة منهما أن تتخلص منها وتخرج سالمة على حساب الدولة الأخرى . فانجلترا تبسط سلطانها على معظم أسواق العالم معتمدة بنفوذ مطلق فى مستعمراتها الواسعة ، وتحكمها فى منطقها الاسترلينى التى لا يمكنها أن تتعامل مع أى دولة غير انجلترا . فاذا أرادت مصر أو الهند أو العراق مثلا أن تبسح محاصيلاتها فلا يمكن أن تبسحها لغير الانجليز كما أنها لا تستطيع أن تستورد سلعا من غير الأسواق الانجليزية . ومعنى ذلك عدم الاتجار مع أمريكا التى باتت تشكو من تضخم الانتاج وزيادته ، والتى يعجزها تصريفه فى الأسواق الخارجية حتى تتمكن الهيوت المالية ، وأصحاب المصانع ورؤوس الأموال من أن يربحوا من وراء هذا الانتاج إذ أن غرض الرأسماليين من انتاج السلع هو الحصول على أكبر قدر ممكن من الأرباح وليس بحال اخراج السلع لمنفعة المواطنين .

وانه لمن الممكن لأمريكا أن تحول الانتاج الأمريكى إلى أسواقها الداخلية فيستعش الشعب ويعمه الرخاء . ولكن ليس ذلك غرض الرأسماليين من انتاج السلع فلا يهمهم شبع شعوبهم ورخاء بلادهم بمقدار ما يهم ملء جيوبهم وزيادة دخلهم . وإذا كان الرأسماليون الأمريكيون لا يريدون رخاء لشعبهم ، وإذا كانت انجلترا تسيطر على أسواق المستعمرات ومنطقة الاسترلينى ، فلا شك أن الانتاج الأمريكى سيتكدس ويتعطل ، وستواجه أمريكا مشكلة داخلية حادة هى تعطل ما يزيد على ١٩ مليون عامل وهنا تكون الطامة الكبرى والمصيبة العظمى إذ معنى تعطل هذا العدد أن يقل الانتاج بمقدار القوى المعطلة وأن تقل قدرة الشعب عن الشراء

وبالتالى تقل الارباح التى يمكن أن يجنيها الرأسماليون وهم المسيطرون على الحكومة والموجهون لسياسة الدولة الخارجية والداخلية .

فإذا لا بد من الصراع بين إنجلترا وأمريكا للسيطرة على أسواق العالم التجارية وما نحن بيزى بؤادر هذا الصراع من خلال الصيحات التى ينادى بها المليون الأمريكيون عن حرية التجارة وفتح باب الاسواق الخارجية فى وجه البضاعة الأمريكية بدلا من احتكار الاسواق . وليس طلب إنجلترا من أمريكا قروضاً وممانعة بعض البيوت المالية الأمريكية إلا أثرا لهذا الصراع العنيف .

وما يزيد الطين بلة ويوسع الفوة بين الدولتين اعتقاد البيوت المالية الأمريكية أن تدعيم الحكومة العمالية بالمال معناه تدعيم سلطان الاشتراكية فى أوروبا وهذا ما نخشاه الرأسمالية الاحتكارية .

يبد أنى أحب أطمئن أولئك الأمريكيين — ولا شك أنهم مطمئنون — إلى تصرفات حكومة العمال الإنجليزية التى لم تخرج عما رسم حزب المحافظين من خطط استبدادية ونظرات استعمارية وأحدث أخبارها حماية الاستعمار البريطانى لمصالح الاستعمار الهولندى فى أندونيسيا واستعماله الرصاص والنار ضد شعب يريد حرية وسعادته وفى الهند الصينية وسواهما .

(ب) الصراع بين الاستعماريين الفرنسي والانجليزى

لم ينقل فوز الأحزاب اليسارية فرنسا نقلا تاما من جانب الدول الرأسمالية الى جانب الدول الاشتراكية فرجعية ديجول وأنصاره ما زالت على فرنسا فى سياستها الخارجية وأوضاعها الاقتصادية لذلك وضعنا هذا الصراع فى قسم المصادرات الاستعمارية (١) . فعلى الرغم مما نشاهده فى حياتنا اليومية من الاتفاقات الظاهرة بين الانجليز والفرنسيين إلا أننا لا بد واجدين أنواعا من الصراع بين هاتين القوتين تبدأ بمشاكل الشرق الأوسط وتنتهى بضعف الانتاج الفرنسى . فالواقع الاستراتيجى فى سوريا ولبنان وغيرها من البلاد التى تزعج تحت الانتداب الفرنسى هى فى الواقع ضرورة لحفظ كيان المستعمرات الإنجليزية فى الهند

(١) كتبت هذا البحث قبل استقالة جنرال ديجول وترأس فليكس جوان — وبعد تخلى

والشرقين الأوسط والأدنى لذلك شاهدنا انجلترا لابسة مسوح الرهبان فتدخل سوريا ولبنان في ثوب المنقذ الانساني والمدافع عن حرية الشعبين السوريين ولكن الواقع بين لسا ان الاماكن الاستراتيجية هي التي أوحى للانجليز بما أوحى فشاركوا الاستعمار الفرنسي أوزاره وتحملت الى جانب اجرامها في حق المستعمرات الواقعة تحت انتدابها - اجراماً وأضافت الى صحيفتها السوداء سواداً ودخاناً .

وثمة مشاكل اخرى متنوعة بين الدولتين الاستعماريتين فالدولار الفرنسي وارتباطه بالاسترليني وضعف الانتاج عقب حرب جباره أهلكت الحرث والنسل وتطلع انجلترا الى الاسواق الفرنسية ، وامتداد النفوذ الانجليزي في المناطق الفرنسية كل ذلك كفيل بأن يجعل صراع الدولتين على أشده ولا شك ان الأيام القريبة ستنبؤنا بكثير من المصارعات بينهما وغدا سينظر العالم الى آثار التناطح بينهما اذا لم يوفق اليساريون في كلا البلدين الى رتق الهوة وأكبر أمل ان تتجه فرنسا خصوصاً بعد تولى الاشتراكيين والشيوعيين أمرها - وجهة سليمة .

الصراع بين اقسام الشعوب ذاتها في سبيل الحياة الحرة والديموقراطية الصحيحة:

ولا يفهم مما سبق ان الصراع قائم بين الرأسماليين في كل دولة، أو ان التوافق حادث بينهم - فالواقع ان هناك صراعاً أعنف وأعمق - يضره تطور المجتمع في هذه البلاد جميعاً - فحينما يكون مجتمع منقسماً الى طبقات - يكون هذا الصراع مشبوباً ولا شك ان هناك صراعاً دائماً بين طبقتي العمال والفلاحين من جهة والبرجوازيين من جهة اخرى بحكم ما بينهما من خلاف واختلاف وتناقض وتباين فالبرجوازيون يسرقون من العمال مجهودهم ويأكلون اجورهم ويمنعون عنهم ثمرة قواهم . نسجوا الحرير ايلبس الأغنياء وبنوا القصور ليسكن المترفون وصنعوا الحياة ليسلبوا حق الحياة فلا غرو اذا وجدنا الصراع الطبقي بين القوتين يكاد يؤدي باحدهما . ولن يكون البقاء الا للقوة الفتية النامية ومن هنا نجد الجماعات الشعبية تتكامل في اتحادات قوية لتصل الى الحكم طريق الحياة وسبيل التشريع . ونحن اليوم نرى أثر هذه الجوع الشعبية في اتحاداتها المتناسكة وقوتها الثابتة ومصارعها لخصومها الجبناء . ففي فرنسا نجح الحزبان الشيوعي والاشتراكي نجاحاً تاريخياً وفي انجلترا فاز العمال على المحافظين فوزاً ساحقاً وفي اليونان يتحد الحزب الشيوعي

ورجال اليسار ومن ورائهم جموع الشعب الزاخرة ضد الرجعيين وأنصارهم من الانجليز والامريكان واما لنسجل اللوم لابل الخزي والعار واللغة والشنار على انجلترا وامريكا اللتين نصبتا من دولتيهما أعداء للشعب ولحركة التحرير اليونانية فقد تدخلتا بقواتهما لنصرة أحزاب اليمين وخيانة البلاد ضد الحرية واراادة الجماهير. أما يوغسلافيا فقد تولى المرشال يتو زمام الحكم عن جدارة واستحقاق ولأجل ان نعطي فكرة صادقة عن المجاهدين اليوغسلافيين ثبت هنا قول مستر تشرشل في مجلس العموم البريطاني ، ان الشيوعيين اليوغوسلافيين كان لهم الفخر في ان يكونوا أول من بدأ بمقاومة المحتل الغاصب ، وفي اسبانيا بدأت حركة المقاومة السرية تشد ضد ركن الفاشية في اوروبا الجنرال فرنكو .

وفي الارجتنتين قلب الثوار حكومة الفاشيين . وفي البانيا أقصى الشعب الملك زوغو الذي فر من البلاد إبان الاحتلال تاركا الشعب بجاهد ويناضل في سبيل البقاء وقد تكونت الجهة (١) الوطنية تحت زعامة انور خوجه لتحقيق للشعب آماله وتدفع به الى الامام . وفي فنزويلا نشبت ثورة حامية بين الضباط الشباب ورئيس الجمهورية الذي أسقط حتى يتوصل الشعب الى ايجاد رئيس منتخب من الشعب . وفي الصين انتهت الحرب الاهلية بين جيوش الشيوعيين الظافرة تحت قيادة الزعيم الشعبي الكبير (ماو تسي تونج) وبين حكومة الاستبداد المركزية بقيادة كاي شك وهنا تحب ان نسجل على الامريكين تدخلهم لمساعدة كاي شك ضد الاحرار ودعاة الانقاذ .

وفي ايران تمكن الحزب الديمقراطي من تحقيق الاستقلال لأذربيجان وتخليصها من يده الظلم الإيراني . الصراع بين الكتلة الرأسمالية والكتلة الاشتراكية

ليس هذا الصراع نوعاً من المصادفات الطوفا ولا نتيجة للظروف الغريبة ولكنه مسار للتطور الذي قضى على الانسانية بالسير من مراحل الشيوعية البدائية

(١) جاء في الإخبار الأخيرة ان البانيا حولت الى جمهورية ندية .

والمجتمع العبودى والاقطاعى والرأسمالى الى مرحلة الاشتراكية فى الانتاج فهناك فى بعض أجزاء العالم يكون المجتمع الاشتراكى من الشعوب الاوربية الممثلة التى نتم بالديموقراطية الحقبة كبولانده ، وفلاندا ، وبلغاريا ، ورومانيا والمجر ، وروسيا السوفيتية ، واتحاد الجمهوريات السوفيتية الأخرى . يقابل هذا المعسكر ما يعرف بمعسكر الرأسمالية والاستعمار البريطانى ، والأمريكى ، والفرنسى ، والهولندى ، وغيره من بقية أجزاء العالم المتوحش ، المحكوم بالنظم الفردية التنافسية ولقد عاش المعسكر الشعبى فى سلام واطمئنان داخلى ، نتيجة للنظم الديموقراطية التى يسير عليها ، فان علاقته بالمعسكر الرجعى لا تزال فى اضطراب وتقلقل نظرا لمطامع الرجعية العالمية واستعمالها أساليب الخداع والنفاق فى استغلال البشر وتمويق المكافحين من أجل الحرية والديموقراطية وذلك يتعارض بطبيعته مع المبادئ الانسانية الشعبية التى تمنع فى كل حركة دنيئة يقصد بها استغلال الانسان للانسان وإذن فلا حيرة ولا دهشة اذا رأينا مؤتمر الوزراء الخمس ينفض بالرغم من الجهود التى بذلها الرفيق « مولوتوف » فى سبيل إطالة مدة المؤتمر حتى يتمكن من الاتفاق على المسائل التى لم يتم بحثها . وليس بغريب ان يصدر التلاعب بالمعاهدات والمقررات من أمثال بيفن وبيرنزمن درج فى الأوساط الرأسمالية وتغذى بأرزاق العبيد ، عبيد المستعمرات التى يملكونها والبلاد التى يحتلونها . فيناقضون ويؤولون إزاء مقررات صريحه . ومعاهدات واضحة حددت فى بوتسدام وقررت فى برلين كما أننا سنسمع الكثير من الاخبار عن ألعيب الرجعية العالمية التى ترمى الى إعاقة القوى الشعبية عن السير الى الأمام والعمل لتحرير البشر ومكافحة العبودية . وسوف نسمع كثيراً عن الحيل الشيطانية والمهازل الصنيانية كتلك النداءات التى صدرت من أبواق الجرائد الاستعمارية فى فرنسا وإنجلترا وأمريكا عن ما يسمونه مشروع الصداقة الغربية ، والذي يراد به جميع الدول الاستعمارية الواقعة فى غرب أوروبا فى شبه اتحاد مهدد القوى الشعبية الأوروبية كما أنه ليس بعيد ان تستعين جامعة الدول العربية بهذه الكتلة الغربية الرجعية فاذا هى باغت هذا المصير أصبحت اخطبوطا للاستعمار والصهيونية وحرباً على الشعوب العربية بدلا من ان تكون عوناً للتحرير ونصيراً على المستعمرين .

بين المستعمرات والمستعمرين

هذا لون آخر من ألوان المصارعات بين أنصار الحرية والقوى الرجعية . بين قوى فنية حرة وبين كتل استعمارية رجعية هدامة . أعقب الحرب العالمية الاولى . واستمر بين الحريين عند ما شعر المستعبدون بالأغلال تحز في أعناقهم والقيود تدمى أعقابهم . ولكن مثل هذا الصراع من جانب العبيد كان يقتل في المهد ويقضى عليه وهو وليد . وذلك لشدة سيطرة الاستعمار واستعمال الخداع والمكر تارة ، والقوة والمدافع تارة اخرى .

ونظراً لاستقرار الحالة الدولية بعد هذه الحرب ، واتصال المستعمرات بدعاة التقدم العالمى ، وعطف الزلم الديموقراطى على الحركات التحريرية ، وانهزام بعض الدول المستعمرة . واخيراً نمو الروح الوطنية وتيقظ الوعى القومى بين العبيد ، سكان الكفور ، وظلال القبور . بعد ان سمعت بمواثيق الاطلنطى وبالبطه وسسان فرنسكو . هبت المستعمرات - عبيد الزمن وأرقاء القرون - فى كل بقعة لتكسر القيود وتحطم الاصفاد ، قيود الاستعمار ، وأصفاد الاستغلال فى اندونيسيا أعلنت الجمهورية الوطنية الحرب المقدسة على الاستعمار الهولندى وشريكه الانجليزى وانه لما يحز فى النفس ان تعتمد انجلترا باسطوطها الى محاصرة اندونيسيا وتصويب بنادقها ومدافعها وطائراتها الى قلوب الاندنوسيين .

ألا فليسجل التاريخ هذه الصفحات السود من تاريخ الانجليز . وان انجلترا عدوة للحرية ، وان حكومة العمال ، وحكومة العمال بالذات خانت قضية العدل ، وقضية العمال .

أما فى مصر وسوريا ولبنان وفلسطين وبلاد العرب فقد ابتدأت الطليعة الواعية من الشعب وجامعير العمال ترسل صيحاتها ضد الاستعمار وأنصاره من خونة البلاد . كما ان بقية بلاد المستعمرات فى افريقيا وآسيا وغيرها أخذت فى تنظيم كفاحها وارسلت نداءاتها ضد الاستعمار . فى كينيا ، والهند ، والصومال ، والسودان ، واوغندا ، وتنجانيقا . ونياسلاند صيحات حارة وصرخات حادة ، سوف تشع . ولا بد من ان تتحرر . لأنها آمنت بعدالة مطلبها . ووضعت أصبعها على أعدائها الحقيقيين أنصار الاستعباد ، وابطال الاستغلال .

في السياسة المصرية

الاستعمار والرجعية : نظراً لارتباط الرجعية المصرية بالاستعمار وقيام هذا الأخير بدور الحوض والتفريخ لها نرى من واجب البحث ان نتكلم عن الاستعمار وتاريخ ظهوره في أوطاننا وما ترتب عليه .

لذلك سنرجع قليلا الى الوراء لنعيش بعض الوقت مع القرن السابع عشر والثامن عشر حيث نشاهد مرجل الثورة الصناعية في اوروبا . يكاد ينفجر من غليان الانتاج وتكدسه وكثره السلع في اسواق اوروبا وما أعقب ذلك من فائض مال منساب في جيوب الاغنياء أصحاب المصانع ورؤوس الاموال فعجزت الاسواق المحلية عن استهلاك هذه السلع والمنتجات . الأمر الذي جعل أصحاب الأعمال يستغنون عن كثير من عمالهم فتفشيت البطالة وكثرت المجاعات وصار شعار العمال في كل مكان الخبز . الخبز . نريد الخبز . وأصبحت اوروبا على كان يوشك ان ينفجر فيذهب بالأبيض والأحمر من جراء هذه الحالة الملعونة .

فقام الرأسماليون بحملات واسعة لتصريف انتاجهم وبالتالي لمنع الثورة التي تهددهم في بلادهم ، ثورة الجوع والبطون والحرمان . فتطلعت عيونهم الى الشرق وبلدانه يصرفون فيه سلعهم ويبيعون أهلهم منتجاتهم واستطاعت كل دولة في اوروبا ان توجد لها علاقات تجارية مع بلدان الشرق وأقطاره . وظهرت المنافسة للتسابق على استغلال الشرق وكسب أسواقه التجارية بين انجلترا وفرنسا وهولانده ربات التجارة في تلك الايام وكانت مصر من أكبر ميادين هذا التنافس وخاصة بين انجلترا وفرنسا . فحصر فضلا عن أسواقها المحلية وخاماتها الأولية تعد الشريان الوريدي لقلب المستعمرات الانجليزية الواقعة في الشرق فهي ضرورية لانجلترا التي تريدها ان تكون طريقا جديدا نحو الهند . وبمقدار هذه الضرورة هي كذلك في نظر فرنسا التي حاولت غزوها والاستيلاء عليها وضمها الى المستعمرات الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت . إلا ان هذه المحاولة باءت بالفشل ومنيت بالخرلان . الى ان جاء عهد محمد علي باشا فقرب الفرنسيين الى ساحته وأمنهم على ملكه وجعل

منهم المعلمين والمنظمين والمرشدين .إلا أن هؤلاء الذين اصطفاهم محمد على باشا لم يتمكنوا من أى شئ باسم فرنسا أو غيرها من الدول الاجنبية . كما أنهم لم يسيطروا على مرافق البلاد ومصالحها بل كانوا كموظفين خاضعين لامر سيدهم محمد على باشا وبالجملة فقد انعدم التدخل الاجنبى فى أول عهده وذلك للهضة الوطنية التى ظهرت فى ذلك العهد ولتأييد الشعب له فى كل أعماله . وأخيراً بدأ محمد على باشا يخضع للنفوذ الرأسمالى الاجنبى .. فقرضت الدول عليه الغاء نظام الاحتكار بمضى معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ إلى أن جاء عهد عباس يحمل بين طياته علم الرجعية فقترب اليه الانجليز بمقدار إسماعيل إلى الفرنسيين واستطاع النفوذ الانجليزى أن يظهر إلى الوجود على يد مستر (مرى) قنصل بريطانيا الذى تمكن بحسن سياسته ونفوذه من أن ينال موافقة الخديوى عباس بإنشاء خط حديدى يصل القاهرة بالاسكندرية تنقصر الطريق بين إنجلترا ومستعمراتها فى الشرق . وكان هذا الحادث علامة الدمار للاقتصاد المصرى . ومظهراً للغزو المالى الاجنبى فلم يبرح عهد سعيد إلا والمال الاجنبى متدفق فى الاراضى المصرية . فى سنة ١٨٥٤ أنشئت شركة الملاحة النيلية وفى سنة ١٨٥٦ استطاع ميسو ديلسبس ، أن يحصل على امتياز بحفر قناة تصل البحر الاحمر بالبحر الابيض وكون لمشروعه شركة باسم « الشركة الدولية لقناة السويس » وفى سنة ١٨٥٧ تألقت شركة ملاحة اخرى باسم « الشركة المجيدة » . وبالتالى الأمر وقف عند هذا بل ان سعيد باشا بدأ يستدين من الأجانب حتى بلغت ديونه عند وفاته ١١٠.٠٠٠.٠٠٠ ر. من الجنيهات .

وكانت هذه الديون أمراً لا بد منه يرثه خلف عن سلف فقد تولى اسماعيل العرش مقترناً عهده بالاسراف والتبذير وبناء القصور الشامخة التى بلغت العشرين عدداً ، وشراء الأطنان التى جاوزت المليون فدانا .

وقد اضطر اسماعيل الى الاستدانة من البيوت المالية الاجنبية آناً باسمه وطوراً باسم الحكومة حتى استهلك بعضها فى شراء تلك الأطنان والانفاق على ملذاته والعضء الآخر استهلك فى الوساطة والأعمال الانشائية كتعبيد الطرق وانشاء

السكك الحديدية وشراء الآلات التي مصيرها التعطل بعد الشراء أى فى فتح السوق المصرى للاستغلال الأجنبى والبضائع الخارجىة .

وقد بلغت قيمة الديون ١٢٦٠٣٥٤٠٣٦٠ جنيه .

على أن هذه الأموال ليست وحدها التى تقدم بها الأجانب للاستغلال بل إن الأموال الأجنبية أخذت تتكاثر لتستغل الأمكانيات المصرية بشتى الطرق ومختلف الأساليب ، وفى (١) سنة ١٨٩٧ تأسست شركة الدلتا المصرية للخطوط الحديدية الضيقة ، وفى سنة ١٩٠٤ تأسست الشركة المصرية لأراضى الدلتا ولإستغلال الأراضى التى تمر بها خطوط الشركة الأولى وفى سنة ١٨٩٨ تأسست شركة الأسواق المصرية واحتكرت لنفسها بناء وإدارة ١٢٠ سوقاً ثم تلى ذلك تأسيس البنك الأهلى المصرى الذى كان من لجنة إدارته هـ. بارنج ابن عم اللورد كرومر ، ثم تلاهت الشركات حتى أصبحت الجرائد المصرية تشكو من كثرتها وتضخمها فباعنا ما يقرب من ٢٥٠ شركة فى الوقت الحالى وهكذا أصبحت رؤوس الأموال الأجنبية المستغلة الآن فى مصر ما يقرب من ٤٠٠ مليون جنيه .

لم يقف الأمر عند هذا الحد بل إن الإستعمار الانجليزى ابتكر خططاً نارية لربط الاقتصاد المصرى بالاقتصاد الانجليزى حتى أمكنه أن يحول مصر الى قوة إنتاجية للمستعمل الانجليزى وأصبحنا نرى مصر حقلاً من الحقول الانجليزية يخفيه عن بصر الأريب ساسة الانجليز ومندوبو الإستعمار الذين يمثل لنا اتجاههم لورد كرومر فى كتابه مصر الحديثة إذ يقول : « ان مهمة الانجليزى المتمدين ان يقدم يد الصداقة والتشجيع للمصرى المتأخر ، وأن يدفعه مادياً وروحانياً من الهوة التى انزلت فيها . سينال المصريون ماء لزروعهم وعدلاً فى محاكمهم ... »

ونحن لا يهمنا من ذلك الكلام المعسول إلا ان نكشف لسادتنا الانجليز ما وضعوا من ستر محاولين بها تعمية المصريين عن الحقائق الناصعة التى يريدونها

(١) كرومر فى مصر للإستاذ أحمد رشدى صالح يتصرف

وما الى ذلك من الهذيان الكرومرى.

فقد شأت السياسة الكرومرية أن تقيم بعض الخزانات وتحفر بعض الترع لزيد من انتاج القطن المصرى فزادت المساحة المزروعة قطنا زيادة ملحوظة قلت بنسبتها المساحة التى تزرع حبوبا للتغذية ، ففي الفترة (١) من سنة ١٨٨٤ - ١٩٠٨ زادت المساحة القطنية من ٨٠٠ ألف فدان الى ١٠٦٤٥٠٠٠ اضطرر مع زيادتها زيادة فى استيراد المواد الغذائية من الماشية واللحوم والسبك فى سنة ١٨٨٤ استوردت مصر ما قيمته ٣١٧٠٠٠ جنيه قفز الى ١٠١٦٥٠٠٠ جنيه فى عام ١٩٠٨ ما الحبوب فقد بلغ قيمة الوارد منها عام ١٨٨٤ ما قيمته ٥١٠٠٠٠ جنيه قفز الى ٣٠٧٨٥٠٠٠ جنيه عام ١٩٠٨ .

ظم تكن إنالة المصريين ماء لزروعهم حبا فى الاصلاح ولا نفعا للفلاح . كما يزعم اللورد كرومر واسكن للأسباب الآتية (١) حصول أصحاب مصانع دلائكشاير على مواد خام من القطن المصرى (٢) قدرة دفع الخزينة المصرية ما يطالب منها وفاء للديون وفوائدها فيرضى الدائنون عن كرومر الذى اتخذوه ممثلا لهم ومرافعا عنهم (٣) زيادة قدرة الشعب المصرى على الشراء بواسطة الانتعاش الزراعى فيمكن لانجلترا أن تجد من مصر سوقا رائجا لمصنوعاتها (٤) ربط الاقتصاد المصرى بالاقتصاد الاجنبى فى أهم شىء لدى المصريين وهو القطن الذى أصبح تحكمه — فى أوضاعنا الاقتصادية وحياتنا الريفية — أمرا ظاهرا . فالقطن هو الذى يحدد الايجار كل عام وهو الذى يقرر أجرة الفلاحين والى الة فتضطرب حياتنا الاقتصادية لاضطراب سعره عند الانجليز وتتذبذب ائتذذبه وهكذا بدخول فائض مال الاجانب الى مصر ليمتص الامكانيات المصرية على يد الديون الخديوية والشركات الاجنبية ، ويتفنن الاستعمار فى ربط الاقتصاد المصرى بالاقتصاد الاجنبى فى التصدير والتوريد أمكن للاستعمار أن يثبت أقدامه ويحكم أغلاله ويثبت أظفاره فى عنق المصريين ويجعل الشعب المصرى عبدا للمستغل الاجنبى والمستعمر الممقوت .

كان لقيام الشركات السالفة وانتشارها في مصر أثر ملحوظ في نشوء الطبقة البرجوازية المحلية فقد قامت طائفة من المصريين لتوريد ما تحتاجه الشركات من قوى مادية وجسمية وللتجارة مع هذه الشركات بشراء المستهلكات وغيرها من الآلات التي يحتاجها المصريون . كذلك ساعدت سياسة التوسع الزراعي في انتاج مقادير عظيمة من القطن - تحتاج إلى التصدير واستيراد مقابله من مواد غذائية ضرورية - على نمو فئة من التجار أصحاب السفن والمغازل الصغيرة أخذت تتعامل مع الاستعمار في التصدير والتوريد فكان ذلك إيذاناً بظهور إحدى طوائف البرجوازية . برجوازية الحواصم والمدن الكبيرة كالقاهرة والاسكندرية وأسيوط . أما في المدن الصغيرة والقرى فقد استطاع الاستعمار أن يخلق برجوازية عقارية من أصحاب الاملاك وأمرأه الاقطاع وكبار الزراع وقد أفلح إلى حد كبير في ربط هذه الطائفة - التي خلقها بسياسة التوسع الزراعي - بالاقتصاد والاستعمار وتربيتها بالنزعة الاستعمارية وهي الطائفة التي تميز في نظامنا الحالي بالعمد والاعيان وإذن فالاستعمار هو السبب في نشأة البرجوازية المصرية التي حضنها حتى فقسست روباها إلى أن كبرت وترعرعت ونبت ريشها واشتد ساعدها وقوى ظهرها . والاستعمار هو الذي دفع بالمجتمع المصري - وهو غير واع بالنقيض الذي أوجده - إلى الامام بايجاد النظام البرجوازي وهذا هو احد الاسباب التي ربطت البرجوازية المصرية بالاستعمار الاوربي .

وبذلك شطر المجتمع المصري إلى طبقتين جديدتين برجوازية وبرولتارية ملاك وكادحين وأصبحنا نرى المجتمع المصري وقد استأثرت إحدى طبقاته بالمتع والثروات بينما الاغلبية الساحقة من الفلاحين لا يملكون الا الذر القليل من الارض وإذا اشتغلوا كاجراء زراعيين لا يملكون سوى دراهمات معدودات في اليوم في حين أن الملاك الذين يملكون ٥٠ فدانا فأكثر وعددهم ١ إلى ٣٠٠ من عدد الزراعيين يملكون ما يقرب من نصف الاراضي الزراعية والنصف الاخر يوزع على بقية الملاك وعددهم ٦٦ و ٩٩ ٪ من مجموع الملاك فليس بمستغرب من شعب هذه حالة وبلد تلك عاقبته ان يسوده ثلوث الاستعمار واقايم الاستعباد ، الفقر ، الجهل ، المرض

العناصر المهادنة للاستعمار

يقول ماركس، إن العوامل الاقتصادية كامنة وراء كل حادثة من حوادث التاريخ العظيمة، فالثورات التاريخية والتغيرات الاجتماعية لم تحدث الا أثرا لعوامل اقتصادية فمثلا ثورة فرنسا لم تحدث فقط لأن اسرة البوربون قد فسدت ولا لأن (فولتير) وأضرابه كتبوا وتهمكوا بحسب بل لأنه في خلال ٣٠٠ سنة ظهرت طبقة جديدة من التجار وأصحاب الحرف والصناعات الصغيرة ورأت انها أجدر بالسلطة من كبار ملاك الارض وان وجود الطبقة الاقطاعية يعطل مصالحها ويشل استغلالها ولذلك دفعت بالشعب إلى الثورة ضد الاقطاع . وهذا ما حدث في اثناء الثورة وبعدها فقد جلس هؤلاء البروجوازيون للتشريع باسم الشعب ووضعوا من النظم السياسية ما يكفل لهم أملاكهم ويضمن لهم أرباحهم ومصانعهم وحاربوا كل تيار يرمى الى تحقيق مبادئ الثورة تحقيقا شاميا - وقضوا على مارا وروبسبير بدعوى انهما متطرفان - واتخذوا حركة بابف Babeuf الاشتراكية .

فإذا كانت العوامل الاقتصادية هي أهم ما يكمن وراء الاحداث والتطورات، فما هي العوامل الاقتصادية والاجتماعية التي أنشأت الرجعية السياسية في التاريخ المصري الحديث؟ فمن المسلم به أن اشتراك المصريين في الحكم اشتراكا قمليا لم يظهر قبل سنة ١٧٧٨ وذلك لوجود العهد الاقطاعي المظلم، وانعدام الطبقة البرجوازية التي من لوازمها أن تسعى للاعتراف بها وبحقوقها في ذلك التاريخ، ونظرا لدخول الرأسمالي الأجنبي في مصر وخلق الاستعمار ظروفا جديدة وعناصر مصرية لها كياناتها وآمالها، أخذنا نرى الحديوي اسماعيل - بأمر نوبار باشا بتأليف مجلس للنظار بتاريخ ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ فكان ذلك إيذانا بظهور فئة كبار المصريين التي تشارك الحديوي أعباء الحكم وتقاسمه السلطة، ولايهم كثيرا أن يكون الذين شاركوا الحويوي سلطته قد شاركوه عن وعي لمصالحهم الطبقية أو عن غير وعي - فالمهم أن هذه العناصر وجدت بالفعل وانهم أخذوا يشاركون السلطة بالفعل - على أن اختيار نوبار بالذات وإن كان أول حدث من نوعه إلا انه كان بناء على رغبة الانجليز كما أنه ضم الى وزارته

عضوين أجنيين أحدهما فرنسي والثاني أجنبي بل أن الاعضاء جميعا كانوا بناء عن رغبة الانجليز مما يجعلنا نتساءل عن السر في اختيار هذه الوزارة على هذا الوضع ولكننا نستطيع أن نقول : إن سياسة الأجانب الاقتصادية وخوفهم على أموالهم وشركاتهم ، أوحى اليهم بأن يطلبوا من الخديوى ضمانا كافيا لاستثمارها وحفظها .

فعين الخديوى نوبار ورياض المعروفين بميلهما للانجليز مع الوزيرين الاجنيين وبذلك تفادى سخط المرائين ، وغضب الانجليز . واستمرت وزارة نوبار تمثل السلطة الأجنبية ومصالحه السيوت المالية أما فيما يخص بالفلاحين الذين كثيرا ما زرف أعضاء لجنة التحقيق من أجلهم دموع التماسيح فلم نسمع كلمة عطف واحدة عليهم . بذلك تأسست أول وزارة في مصر تدافع عن الاستثمار وتزود عن المستغلين وكما نبشنا المنهج الديالكتيكي أن وجود الشيء يتضمن وجود نقيضه في الوقت الذي وجدت فيه مدرسة نوبار الرجعية ولدت مدرسة وطنية على نقيضها تعمل البصريين وتدافع عن حق الوطن المسلوب ولا شك ان التنافس بين الاستثمار والخديوى قد أظهر الفرق بين هاتين المدرستين - فالاستثمار يؤيد وزارة نوبار كما قلنا والخديوى يرمى بثقله في الكفة الأخرى فنستفيد الحركة الوطنية .

عوامل ظهور المدرسة الوطنية :

سالت الارباح المتدفقة من الأمكانيات المصرية الى جيوب الاجانب ، وأصحاب القروض الخديوية ، والبنوك المالية ، والشركات الاستغلالية ، وظهر نقيض هذه الحالة واصبحا جليا عند المصريين ، فرهن الملاك أرضهم للبنوك العقارية وهجر الزراع املاكم بعد أن باعوها مع ماشيتهم ودورهم ، وأخذت الحالة تسير من سيء الى أسوأ . فبلغت الديون الخصوصية المسجلة في المحاكم سنة ١٨٧٦ - ١٢ مليوناً من الجنيهات زادت في سنوات قلائل ٢٠ مليوناً من الجنيهات . أما الأطيان المرهونة فبلغت ٣٣ مليون فدان أما الضرائب فقد تعددت ، اسماؤها وتنوعت أصنافها فبلغت ٣٣ صنفا (كرومر في مصر للاستاذ احمد رشدي صالح) والفلاحون الذين جرفهم السيل من منازلهم كما جرف منازلهم ودوايرهم وآلاتهم أخذوا يساقون إلى المحاكم لدفع المتأخر من الضرائب حتى اضطر العمد والاعيان إلى ولوج القاهرة وبث آلامهم موصائهم . وقد صورهم لنا مراسل التيمس القاهري في رسالة له يقول : يوجد

في القاهرة مئات من العمدة والاعيان كل يمثل قرية من القرى جاؤا لتقديم العرائض بطلب تخفيف الضرائب ولقد حاصروا ابواب الوزارات حتى انك تراهم متربصين حولها ينتظرون دخول الوزراء وخروجهم بينما عرائضهم قد غطت بلاط الحجر، كذلك نقصت مرتبات الموظفين حتى كادت تتلاشى في الوقت الذي ارتفع فيه راتب الاجنبي اضعافا مضاعفة. وقد ازداد عدد الموظفين الاجانب زيادة كبيرة وهم الذين اغاروا على الادارة المصرية منذ أواخر سنة ١٨٧٦ وكان لهم الغنم وعلى البلاد الغرم فعين من الأجانب في الوظائف الحكومية فيما بين عام ١٨٦٤ - ١٨٧٠ عدد ١٦٠ شخصا وفي ١٨٧١، ١٨٧٥ عين ١٠٢ موظفا وفي سنة ١٨٧٦ وحدها ما يقل عن ١١٩ اجنيا حشروا في سلك الخدمة الملكية حشرا وفي سنة ١٨٧٧ عين ٧٦ موظفا وفي سنة ١٨٧٨ عين ١٣١ ثم سارت الامور فيما بعد من سيء الى أسوأ حتى أن توريد الموظفين الاجانب في هذه الفترة بلغ حد الفضيحة كما يشهد بذلك مكاتب التيمس القاهري في رسالة له يقول : إن معظم كبار الموظفين هم من الأجانب الذين تصرف لهم المرتبات الضخمة لتهدئة حنينهم الى الوطن ، ولتعويضهم عن آلام الغربة . وقد حشرت المنافسة الدولية هنا ثلاثة أو أربعة من الموظفين في عمل لا يحتاج تأديته إلا الى شخص واحد ولقد كان نتيجة هذه التجارب في طرق الحكم أن ثقل كاهل مصر بعدد من الموظفين ذوي مرتبات ضخمة لا عمل لهم الا قبض المرتبات ، وشهد زميله الاسكندري في رسالة من الاسكندرية إذ قال : إن كثيرا من محبي اللهو من السائحين يجدون تسلية كبرى في عد المستخدمين الاجانب الذين تبلغ مرتباتهم آلاف الجنيهات في مقابل أعمال زهيدة يؤدنها في حين أن المستخدمين الوطنيين لا يستطيعون أن يحصلوا على مرتباتهم الزهيدة التي لم تدفع لهم منذ عام أو أكثر مع أنهم قاموا بخدمات جليلة نافعة ، وفي رسالة له أخرى يقول : إن التذمر من جيش الموظفين الأجانب الذين جئ بهم لأصلاح مصر أصبح عاما الآن فهم يتقاضون مرتبات ضخمة يبلغ مجموعها ٦٠٠.٠٠٠ جنيه سنويا مقابل الاعمال التي يقومون بها . لعمرى أننا ننحدر إلى الهاوية بسرعة بالرغم من السائقين الانجليز والفرنسيين والطلليان ، مع اقتران ذلك كله بالاستغناء عن كثير من ضباط الجيش

وموظفيه فقد استقر رأى الوزراء والأجانب ذات يوم جمعة للقيام باصلاح جديد للحصول على ما يكفى لاداء كوبون ابريل فاصدروا أمرهم باقالة ٢٥٠٠ ضابط من ضباط الجيش لم يستلم أحد منهم مرتبه عن الثمانية عشر شهرا السالفة كما أن الكثيرين منهم كانت متأخرة عن ضعف هذه المدة.

فكانت هذه العوامل متحدة باعثة البلاك والشعب المرهقين بالضرائب على التخلص من نير الاستعمار الانجليزى والاستبداد الحكومى الذى أوقع مصر فى هذه النكبات دون أن يسأل عما يفعل أو يناقش فيما يعمل . لذلك حزم أولئك المرحقون أمرهم وضموا صفوفهم الى التجار والبرجوازيين الذين اضر بهم الاستعمار كما أضر بسائر طبقات الأمة .

فقد انفرد باستغلال الشعب واحتكار السوق فلم يستطيعوا الانتفاع بالحركة التجارية التى ولدها الاستعمار وتسلط عليها ، فوضعوا أيديهم مع الشعب متخاصرين متأذرين مواطنين عزهم على مواصلة الكفاح والنضال ضد الاستبداد وحليفه الاستعمار . فاجتمعوا فى دار السيد على البكرى نقيب الاشراف أولا ثم بمنزل اسماعيل راغب ثانيا وعقدوا جمعية وطنية استقر رأيا على المطالبة بتأليف وزارة وطنية وتقرير نظام دستورى للبلاد يجعل الوزارة مسئولة أمامه عن اعمالها امام مجلس النواب وبفضل تأزدهم وتمسكهم بمطالبهم استقالت وزاره نوبار باشا وتألقت أول وزارة وطنية خالية من العنصر الأجنبى ، هى وزاره شريف التى أخذت على عاتقها وضع دستور مصرى لصالح مصر والمصريين ومن ثم ابتدأ النزاع والصراع بين هاتين القوتين قوة الرجعين الممثلة فى الانجليز وأنصار الاستعمار كرياض ونوبار وقوه الوطنيين ممثلين فى الجمعية الوطنية والشعب المضطهد .

وقد كان لهذا الصراع أثر بارز بين القوتين انتهى بتخلى الحديوى اسماعيل عن منصبه وبتطور المدرسة الوطنية الى ثورة جباره على يد عرابي والزعماء الوطنيين

الثورة العربية

ان قانون التحول الفجائي الناتج عن تطور الاشياء والذي يدفع بها الى كيفيات مختلفة وهو قانون يصدق على الكائنات وتخضع له سائر الحركات . هذا القانون يمكن تطبيقه على الحركة الوطنية في سيرها الى الامام أى في تحويلها الى حركة ملتبة وثورة مضطربة تقضم جنوة الاستبداد وتلتهم حطب الاستعباد . . . ولقد اشتعلت نيران الثورة العربية في مصر ضد الانجليز والحكم الاستبدادى . وكانت حركة وطنية مصرية ضد الاستبداد العثماني أيضا (راجع كتاب كرومر في مصر) .

ففي يوم ١٥ صفر سنة ١٨٩٨ تقدم زعماء الشعب المصري بمطالب جزئية عسكرية قائلين الخديوى من جانبه باصدار أمر لنظارة الجهادية يقول فيه : « بنا على الأفكار الفاسدة والحركات المضرة المتوقعة من كل احد بك عرابي ميرآلاى » بياده وعبد العال بك حشيش ميرآلاى « بياده وعلى بك فهمى ميرآلاى آجى بياده خلافا للقانون والنظام العسكرى قد تقرر بمجلس النظار المنعقد بتاريخه بسرائى عابدين تحت رئاستنا بتوقيف الثلاثة ضباط الماكورين وإحالة محاكمتهم الى مجلس عسكرى رئاسة الجنرال استون . . . الخ ، فأخذت منهم سيوفهم ووضعوا السجن ووقف الناس بالطبنجات وآخرون بالسيف الى أن جاء زملاؤهم من الضباط والجنود فأنقذوهم من السجن .

وفي يوم ٤ فبراير سنة ١٨٨١ توجه العسكرون الى الخديوى توفيق طالبين عزل ناظر الجهادية ولم يبرحوا أمكنتهم حتى أجيب لهم ذلك وتعين محمود سامى البارودى ناظر للجهادية إلا أن هذه المطالب الجزئية لم تكن كل شئ فالبلاذ لم يكن بها قوانين تمنع الأقوياء عن الضعفاء وترد الظلم عن المظلومين وتسوى بين الناس . لذلك اعتمد أعيان البلاذ وعمدها ورجال الشعب وطوائف القطر على أبنائهم — من العساكر والضباط الذين يمثلون مختلف طبقات الشعب — فاتحدت كلة الامة بزعامه العربيين على تحقيق مطالب الشعب التى يمثلها لنا عرابي باشا في وثيقته التى بعث بها الى اللورد دوفرين ، بتاريخ ١٥ ديسمبر سنة ١٨٨٢ حينما

- طلب منه بيانات بالأصلاحات العراية لا انتظام الحكومة المصرية وهامى :
- (١) يجب على الحاكم فى مصر أن يكون محدود السلطة مقيدا بقوانين شورية وعليه مراعاة تنفيذها والمحافظة عليها وتلك قاعدة أساسية تكون مرعية الاجراء على الدوام
- (٢) يجب انتخاب مجلس النواب من نباء الأمة المصرية ويكون لانتخابهم حرا كما فى الممالك المتمدنية وتعرض عليه جميع اللوائح والقوانين الادارية والقضائية وتعطى لأعضائه الحرية التامة فى المداولة وإبداء آرائهم الصريحة
- (٣) يجب أن توضع قاعدة المساواة بين سكان القطر عموما لا يمتاز فيها الاجنبى عن الوطنى فى جميع المعاملات وضرب الضرائب والرسوم وغير ذلك
- (٤) يجب وضع حد للرايين لمنهم من سلب أموال الاهالى كما يجب إيقاف المزارعين عند حدم فى الأخذ بالريا
- (٥) يجب تسوية دين المزارعين وتسديده بواسطة الحكومة إلى الدائنين على أقساط متناسبة تسدد إلى الحكومة مع الانساض الأميرية
- (٦) يجب إبطال ضرائب الوركو والفردة والدخوليه وجميع المكوس التى أضرت بالفقراء والمساكين
- (٧) يجب إبطال السخرة التى هى السبب الوحيد فى عدم العمران وتشتيب شمل الذين لا قوت لهم الا كد أيديهم وعرق جبينهم
- (٨) يجب توحيد القوانين القضائية فى جميع محاكم القطر المصرى وتنفيذها بالدقة بدون تدخل من ذوى السلطة فى تأويلها واستعمال الطرق القديمة فى مراعاتها ظاهرا وعدم مراعاتها فى الحقيقة
- (٩) يجب إبطال المحاكم المختلطة التى أضرت بالوطنيين وكانت الوسيله الوحيدة لأعانة المرايين على تجريد كثير من الوطنيين من أطيانهم وأملاهم
- (١٠) يكسنى من الاجانب الموظفين بقدر الضرورة مع مراعاة حالة مالية البلاد فى روايتهم والمناسبة بينها وبين روايت الوطنيين
- (١١) يجب أن يكون قنال السويس حرا بكفالة الدول الموقعة على معاهدة برلين وفى مقابل تنازل مصر عن حقوقها الصريحة فى ذلك تعوض بمبلغ كاف يعادل هذا التنازل ليسدد به جانب من الدين ومع ذلك يبقى لمصر حق فيه كباقي الدول

المذكورة وعلى الدول أيضا دفع مبلغ سنويا يكون كافيا للحفاظ على القنال
(١٢) لاجل تأمين الدائنين على أموالهم يجب تنزيل الدين الى ٥٠٪ وجعل

الفائدة ١٪ مع الاستهلاك سنويا

(١٣) يجب أن تكون ضرائب الارض المشورية مساوية لضرائب الاراضى

الخراجية لأن الخراجية صارت ملكا حراما لملكها بمقتضى قانون المقابلة

(١٤) يجب اعتبار الاموال التى دفعت من طرف المزارعين فى المقابلة ديننا على

الحكومة وقدرها ١٧ مليون جنيه سبعة عشر مليون من الجنيهات وذلك أسوة

بالاجانب

(١٥) يجب تعميم التعليم وتوسيع دائرته فى انحاء القطر بحيث يكون إجباريا إلى

غاية سن ١٥ سنة خمسة عشر سنة

١٦٠ يجب أن يكون لمصر وكلاء فى جميع الممالك الواقعة على معاهدة برلين

لافهامها حقيقة مصر وتسهيل المعاملات التجارية وغيرها

هذه هى المطالب الرئيسة التى أن دلت على شئ فاعلى أنها صادرة عن حركة

وطنية بقيادة طبقة مميّنة تريد أن تكف الاستغلال عن الارض ، وأن تشترك فى

الحكم وأن يسوى بين أفرادها وبين الاجانب المقيمين ومعظمهم تجار - أى أنها مطالب

وطنية عامة وليست مطالب عسكرية كما يرجف المغرضون بل تقدم بها العسكريون

نيابة عن الامة

وقد كان مقدرا لهذه الثورة أن تنجح لولا انحياز الكثيرين إلى جانب الانجليز

ولولا عدم تنظيم العناصر الوطنية ، وطفولة الطبقة الوليدة التى أرادت أن تشارك

فى السلطة فأخذ الصراع يشتد ويتزايد بين القوتين ، قوة الوطنيين الثوريين وقوة

الانجليز والرجعيين

وأخيرا سقط الاشراف الوطنيون وانفرد الانجليز بحكم مصر واحتلال وادى النيل

من سنة ١٨٨٢ - إلى قيام ثورة عام ١٩١٩ ويجدر بنا أن لانسى الحركة الوطنية

بقيادة مصطفى كامل ومحمد فريد فهى وإن كانت لم تنته إلى نتائج حاسمة فى حينها إلا

أنها كانت الدفعة القوية الاولى فى تطور نهضتنا الوطنية

تعتبر الفترة التي احتكر الانجليز فيها وادى النيل من أسود الصفحات التاريخية في جبين الاستعمار البريطاني فقد ضيقوا الحريات وقتلوا الروح الديمقراطية في نفوس المصريين . وقاوموا الحركات الدستورية وذلك ليتمكنوا من استغلال الشعب واستنزاف ثروتنا القومية ، وامتصاص أمانياتنا من أجل مصلحة الرأسماليين الأجانب الذين أفسحت لهم الطريق لاستغلالنا ، وقتل الرأسمال الوطني حتى لا يتمكن ضاعتنا من النهوض ومسايرة التطورات الزمنية وقد عمد الاستعمار إلى محاربة الديمقراطية حتى يضمن عدم ارتفاع صوت الشعب مناديا بحقه في الحرية والاستقلال كما نراه يحارب المطالب التي تتضمن تعليم الشعب ورفع مستوى المعيشة ومكافحة الامراض المنتشرة وغيرها .

وقد ترتب على ذلك قيام وكفاح شديد بينه وبين الشعب المصري بقيادة الزعيمين العظيمين مصطفى كامل ومحمد بك فريد . استطاع الشعب بواسطته أن يكف يد التدخل الاجنبي إلى حد ما في حياتنا القومية كما استطاع أن يرد مصر بعض الحقوق التي أهدرها الاستعمار واستطاع أن يبعث الحركة التعاونية في الزراعة والتعليم الوطني وحرية الصحافة . ثم أعقب ذلك قيام الحرب العظمى ونمو الطبقة البورجوازية وإتساعها وإمعان الانجليز في البطش بالمصريين وقتل الحركات الشعبية لذلك ما كادت الحرب تضع أوزارها وترفع مبادئ دولسن ، بحق تقرير المصير . حتى هب أولئك المكافحون منادين بالحرية والاستقلال وابتدأت الحركة المصرية تأخذ شكلا ثوريا بقيادة الوفد المصري وزعامة سعد زغلول باشا .

وهنا ظهر النضال حادا عنيفا بين الانجليز وأذنابهم من الرجعيين المصريين كثروت المنشقين وبين الوفد المصري والوطنيين وقد كان الوفد منذ نشأته القائد للكفاح الوطني الديمقراطي وهو الذي انطلق بعد ذلك يؤيد الديمقراطية الشعبية وقد استهدف الوفد في كل هذه المصارعات إلى حملات الاستعمار والرجعيين حلفاء الاستعمار من الأجانب المتمصرين والمصريين المعادين له

~~وحسب نظرنا~~ ~~هناك خطر من~~ ~~إدخال~~ الديمقراطية في مصر وتشتركان مع
الاستعمار في إقامة العراقيل في سبيل ~~كفاح~~ الوطني ، الأولى طائفة الأجانب
المقيمين في مصر من أرباب المال والأعمال .

أما الثانية فهي طائفة الرجعيين المصريين الذين بقوا معادين للثورات
التقدمية الى اليوم . والسبب في ذلك واضح وجل فارتباط مصالحهم بمصالح
الاستعمار أمر لا شك فيه . فهم يمثلون الاستعمار في عضويتهم لشركائه وإدارتهم
لمصالحه لقاء حصة من المال أن منصب مختال . كما أن البعض الآخر من هؤلاء ، ترجع
عداوته للديموقراطية الى مصالحه الطبقة التي بدأت تتأثر بنمو الديمقراطية ومن ثم
آثر تضحية جميع مصالح الشعب على مصلحته الخاصة .

وقد ظهرت في مصر طوائف رجعية أخرى تعتمد على شباب غريب لا يدرك
من الحياة إلا اسمها ، ولا يعرف عن السياسة غير لفظها وهم وإن اختلف ألسانهم
وتباينت مظاهرهم ، إلا أنهم يتسمون بالفاشية المضللة وذلك كجماعة مصر الفتاة
وهيئة الإخوان المسلمين وحزب النيل عباس حلمي وجماعة على ماهر باشا . وأن
كان الفضل قد أصاب هذه الجماعات في مراحل تكوينها فإن خطرهما ما زال قائماً
على صدور الحركات الديمقراطية . لا بل إن خيبة الفاشية العالمية بدلا من أن تجعل
الحكومة تقضي على هذه الجماعات راحت تؤيدها ، في الوقت الذي تتخفن فيه
الحركات الديمقراطية ، وتزج بالأحرار الشعبيين في أعماق السجون ، وأخيراً
ينضوى تحت لواء الرجعيين كثيراً من الكتاب والفلسفين كالعقاد وغيره من
أصحاب البروج العاجية والصحفيين المأجورين للانجليز وأرباب الأعمال والذين
لا عمل لهم إلا مناهضة الحركات الديمقراطية ومحاربتها والنظريات المعادية
للميموقراطية والتهجم على النظام البرلماني والدستور ووصفها بأقبح الصفات رغبة
نفسها ، والذين يقومون اليوم بمحاربة مقتضيات الديمقراطية ومعارضة التعليم
الاجباري المجاني ، وحق المرأة في نيل حقوقها المكتسبة ورفع مستوى معيشة
الفلاحين والعمال ومعاداة الحركات التحريرية والنهضات الشعبية ومحاربة الحركة
العالمية وطلبة (١) الديمقراطية المثقفين .

(١) راجع مقال الديمقراطية المصرية بين أنصارها وأعدائها (العدد ١٥ من النجر الجديد)

على أننا لا نغفل ما حدث في الوفد الممثلة في أيامنا الأخيرة من انقسام قيادته الى ناحيتين تقدمية ورجعية ~~تسيطر~~ العناصر القوية من كبار الملاك والمزارعين على الوفد في اتجاهه الرجعي وكونه كغيره من الاحزاب يميل الى الاستمرار ومهادنته للانجليز واتخاذ طرق الرجعية في سياسته الخارجية .

رجال الدين بين انصار الشعب اعدائه

لمحة تاريخية : يرجع تاريخ ظهور رجال الدين كقوة رجعية هدامة الى المجتمع الاقطاعي حيث اضطر الامراء والنبلاء الى اخضاع العبيد بشق الطرق ومختلف الاساليب . وقد وجدوا سلاحهم البدني في رجال البوابيس والجيش الذين تعتبر مهمتهم الاولى منع العبيد من الفرار ، وارجاعهم الى حظيرة النبلاء والاشراف بقوة الحديد والنار . أما سلاحهم الروحي فقد تكفلت به جماعة كسلي كانت تمشي على حساب البعيد الكادحين . رمي الطائفة التي سميت فيما بعد باسم رجال الدين ، فكانت مهمتهم تخدير أعصاب العبيد وتخويفهم بالقوة الخفية التي تطلع على أعمالهم وتشهد على أفعالهم وسوف تحاسبهم على مخالفة أمر الاسياد التي هي أوامر الله على ألسنتهم إذ أنهم يستمدون سلطتهم من الله فمخالفتهم عصيان وتمرد على الله القوى الجبار . الى غير ذلك من التهديد والوعيد والتخويف والتحذير . وقد أمكن لهذه الطائفة أن تتضحخم في عصر التاريخ وتسار الزمن في قوتها حتى أصبحت تملك ثلث مساحة أوروبا وعشر غله الباقي .

لذلك لا تعجب اذا رأينا هذه الطائفة تعمل عمل الرجعية خوفا على سلاطنتها وحفظا لكيانها كما حدث من كبار رجالها المترفين إزاء الحركات الشعبية في روسيا وعلى سبيل المثال نذكر هنا بعض ما عانت الحركة الشعبية الاشتراكية الديمقراطية على يد كبار رجال الدين الروسيين من عداوة لرجال الحركة وصفوف العمال .

فقد يكون فيه بعض المعرفة لمن يرمى الاشتراكية — خطأ وعن جهل —
بعنائها الأديان وهي بريئة من هذا الادعاء، وإن حاربت بعض رجال الدين
الرجعيين الذين أعاقوا الثورة ولعنوها وانضموا الى صفوف القياصرة في محاربة
الاشتراكيين ، وذلك ما يحدث دائماً في صفوف رجال الدين فان كبار الدين هم
الذين ينضمون الى الرجعية دائماً لحفظ مرا كزهم وأموالهم أما صغار رجال الدين
فهم دائماً في صف الشعب والجاهير إذ أنهم لم يتلوثوا بأدران المادة ولم تلهمهم تجارة
أو بيع عن ذكر الله وحق الجماهير .

ففي ١٦ يناير ١٩٠٥ ثار العمال بمدينة سانت بطرس بوج وأعمل فيهم الحرس
القيصري مدافعه وسيوفه حتى بلغ عدد القتلى عدة آلاف فأصيب د. السينود ،
منشوراً جاء فيه « لقد وقف الشعب الروسي الارثوذكسى من أول تاريخ حياته من
أجل الدين والقيصر ولكنه الآن تأثر ببعض رجال سوء للحصول على حقه ... »
ثم تلغتهم الكنيسة وليس لهم من وزر سوى أنهم ماتوا في سبيل الحرية بل
ماتوا في سبيل المطالبة بالخبز . ثم يختم المنشور بالعبارة المعهودة « يريد أعداؤنا أن
يزلزلوا دعائم ديننا المسيحى وسلطة القيصر ... اسجدوا لله واحترموا القيصر .
اخضعوا لكل سلطان مبعثه الرب !! »

أما في ثورة اكتوبر الاشتراكية فقد حاربت الكنيسة الثورة والثوار واعتهم
وأصدرت المنشورات ضدهم واليك ما جاء في أحد المنشورات « بحكم السلطة التى
ومبنا إياها من لدن الرب تمنعك دون الاقتراب من السر المقدس المسيح . نحن
نحرمك من رحمة الكنيسة لو كنت ما تزال تحمل اسماً مسيحياً حتى ولو كنت
بمولدك تمت الى الكنيسة الارثوذكسية . نحن ندعوكم يا أبناء الكنيسة المخاضين الى
عدم الاشتراك بأى شكل من الاشكال مع هؤلاء المجرمين . أبعدوا أنفسكم عن
هؤلاء الأشخاص الملائعين . »

وبمثل هذه المنشورات وغيرها من أساليب الحرب والدعاية يتضح موقف
الرجعيين من رجال الدين من طلاب الحرية وعشاق المساواة .

فهل يحق لنا بعد ذلك أن نقول إن الاشتراكية عدوة للأديان ؟

أم الاجدر بنا أن نعرف أن كبار رجال الدين هم الذين كانوا يهاجمون جموع العمال والفلاحين وهم الذين كانوا يصبون اللعنات على كفاحهم من أجل خبزهم وحررتهم

ورجال الدين المصريون.....

يتجه رجال الدين المصريون إلى ناحيتين متناقضتين إحداهما تسير الزمن وتطورات الحياة وهي طائفة صغار رجال الدين والثانية جامدة جشعة تتمسك بالقديم لقدمه وتكره أن تنتقل إلى عالم النور والتقدم وهذه الفئة في الغالب من كبار الدينين وهذه الظاهرة لا تقتصر على طائفة فحسب ولكنها عند رجال الدين المسيحي واليهودي والاسلامي على السواء في جميع حلقات التاريخ الحديثة كما أن الواقف على المصارعات الرجعية والتقدمية يرى أن صغار رجال الدين هم على الاغلب في صفوف الشعب كما يظهر ذلك من تدبنا لمواقف رجال الدين إزاء الحركات التحريرية المصرية

رجال الدين والحملة الفرنسية :

لقد كان لرجال الدين أثر بالغ في نفوس المصريين خاصة والشرقيين عامة . ونحن لا نستطيع أن ننكر ما للدين من أثر في نفوس الشرقيين مما جعلهم يقدسون رجال الدين ويحترمونهم أكبر ما يكون الاحترام

عرف هذه الحقيقة الغزاة والفاطحيون واستطاع نابليون بونابرت أن يتقرب اليهم بالهدايا الفاخرة والأمانى المذاب إلا أن العلماء قاوموا نابليون ووقفوا في طريقة يحذرون الشعب منه ويؤلبون المصريين عليه وينظمون الثورات ضده وهذه صفحات ناعسة في تاريخ رجال الدين المصريين ! والسبب عندي أن مصالحهم كانت في معظمها متفقة مع مصلحة الشعب ! أى أنه كان يهمهم أن لا يجردهم الغازي من سلطتهم كما كان يهم الشعب أن لا يبطش به المستعمر — غير أن فريقا خائنا قد وجد بين الصفوف — وعلى رأسه بعض العلماء والكبراء أولئك الذين أيدوا

نابليون وتسلطت عليهم عقيدة القدر وأسأوا فهم الحياة الدنيوية وقد أدرك نابليون سر هذه العقيدة لدى الشعب المصري فاستغلها في نشراته وخطبه فما جاء إلى مصر إلا بقضاء وقدر وما تحركوا من بلادهم إلا بقدره الله فكل من يعارضه يعارض الله وهذا نص لمنشور يستغل فيه نابليون عقيدة القدر في نفوس العلماء والشعب المصري...

فيأتيها العلماء والاشراف أعلموا أمتكم ومعاشر رعيتكم بأن الذي يعاديني ويخاصمني إنما خصامة من ضلال عقله وفساد فكره . فلا يمد مخاضا ولا ملجأ ينجيهم من هذا العالم ولا ينجو من يد الله لمعارضته مقاديره سبحانه وتعالى والعاقل يعرف أن ما فعلناه بتقدير الله تعالى وإرادته وقضائه ومن يشك في ذلك فهو أحمق وأعمى البصيرة .

وأعلموا أيضا أمتكم أن الله قدر في الأزل هلاك أعداء الاسلام وتكسير الصليبان على يدي وقدر في الأزل أن أجيء من أرض المغرب إلى أرض مصر لاهلاك الذين ظلموا فيها وإجراء الأمر الذي أمرت به ولا يشك العاقل أن هذا بتقدير الله وإرادته وقضائه والذي يفعل ذلك ، لعنة الله والغضب عليه ، يكون معارضا لأحكام الله ومناफقا وعليه اللعنة والنقمة من الله علام الغيوب ولكن يأتي يوم يظهر لكم عيانا ويتضح أن ما فعلته وحكمت به هو حكم إلهي لا يرد . . .

فاستجاب له من استجاب من العلماء وضموا صفوفهم إليه مستغلين عقيدة القدر في تخدير الشعب وتنويعه والتغدير بالأهالي وإصدار النشرات للبصريين بأمر ونهم بالركون وعدم قتال الفرنسيين مهديين من يشبه السلاح في وجه نابليون بالوعيد الشديد والخروج عن أوامر الله . فمن ذلك ما جاء في أحد المنشورات باسم العلماء الذين انحازوا إلى نابليون

... فاشغلوا في أمر دينكم وأسباب دنياكم وأتركوا الفتنة والشروع ولا تطيعوا شيطانكم وهواكم وعليكم بالرضى بقضاء الله وحسن الاستقامة . . . رزقنا الله وإياكم التوفيق والتسليم ،

وهكذا رأينا بعض رجال الدين يهادنون الاستعمار الفرنسي ضد إخوانهم الذين وقفوا حياتهم مع الشعب ضد المستعمرين

رجال الدين والثورة العراية :

لم يعرف تاريخنا الحديث أن العلماء وضعوا جهودهم الروحية والمادية في سبيل
فصرة ثورة من الثورات كما عرف ذلك لرجال الدين في الثورة العراية .
فقد كان رجال الدين على اختلاف ديانتهم من يهود ومسلمين ومسيحيين —
يحملون راية الجهاد مع الشعب المصرى وكبار الملاك والبورجوازيين وكانت
الثورة العراية قومة مصرية ضد التدخل الأجنبى وفورة شعبية فى سبيل تحقيق حياة
نياية — وعليه فكانت حركة عامة كنت ترى فيها الحاخام الأكبر مع البطريق
المسيحى وشيخ الجامع الأزهر . يخطبون ويحرضون ويعلنون أنهم أعداء للانجليز
والاستبداد .

وقد إنقسم رجال الدين فى هذه الثورة إلى ناحيتين، الأولى تسير فى أذئاب
الانجليز والخطيوى توفيق وعلى رأسها الشيخ العباسى والشيخ أحمد كيره شيخ رواق
الصعايدة والشيخ فتح الله صاحب جريدة الاعتدال مع بعض كبار العلماء . أما الثانية
فقد اتحدت مع الشعب من أول محنة إلى نهاية محنة الثوار ويتزعمها جملة من العلماء
على رأسهم الشيخ الانبائى وكثير من فضلاء العلماء كالشيخ حسن العدوى والشيخ
عليش المالكى والشيخ محمد عبده والشيخ أبو العلا الحلفاوى والشيخ الاشمونى
أحمد المنصورى والشيخ محمد السملوطى والشيخ أحمد البصرى والشيخ عبد الله نديم
والشيخ أحمد عبد الغنى وغيرهم من بقية رجال الدين الأزهريين وقد تجلت أعمال
الوطنيين الظاهرة فى خطبهم فى المساجد وعلى أعواد المنابر وحثهم على الجهاد فى
سبيل الله ضد الانجليز (أعداء الدين والله)

وإلى جانب هذه الجهود كانت الفتاوى الدينية للحض على تطهير الاستبداد
والتخلص من نير الانجليز فقد كانت الحرب — التى أعلنها الخطيوى قبل رحيله
إلى الاسكندرية وبموافقة عمه البلاد وأعيانها والمجلس العرفى — مشروعه وواجبة
لأنها بأمر الخطيوى والوجهاء ورجال الدين ولأن المقصود بها أن ترد الاعتداء
الأجنبى وتصد أساطيل د أهل الكفر والفجور عن المياه الإسلامية ، لذلك لا
نعجب إذا ألقى العلماء بأنها حرب شرعية دينية واجبة على المسلمين ، كما جاء فى

خطاب للشيخ العدوى إلى عرابي باشا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ،
 إن أبهى ما توشحت بموصوله تتأججه همم الاحوان ، وتزركشت بمسلسل أخباره
 أعناق الرجال . سلام يفوق السماكين قدرا ، ويذرى بنشر بشر الطيب زخرا . حضره
 من سطع في سماء الكمال قوره وتفندق في رياضها زهر الفضل ونوره شمس المعارف
 وبدر اللطائف . إنسان عين أهل المجد والعرفان وحامل لواء العز لاهل هذا الزمان
 سعادة احمد الاسم والحصل بلغنا الله وإياه الآمال ، بحام سيدنا محمد والصحب والآل
 أما بعد . فقد حضر لدينا ولدنا أحمد أفندي صادق وبلغنا عن سعادتك السلام
 فابتلنا ورفعنا الاكف إلى ذى الجلال والاكرام أن يرشدنا وإياكم الطريق
 الاستقامة والكمال ويوفقنا وإياكم لمرضاة ذى العزة والجلال أنه غير مسئول بحجة
 كل بنى ورسول وأرجو من الله بحجة حبيبهِ الاعظم أن يعز بكم الاسلام ويحمل كيد
 عدوكم في نحره بحجة سيد الانام عليه الصلاة والسلام . وواصل لديكم صحة ولدنا
 محب الطرفين أحمد أفندي . رافع بنوع المسرات ، والنفحات الشاذلية شرحنا على
 البرود الا باصيرية النفحات النبوية في الفضائل العاشورية ببركة ما فيها من الاحاديث
 النبويه أر يوفقكم لظهار عز المله الخفيفية وان شاء الله بفضل الله لا ننساكم مع
 الاخوان عقب درس البخارى وفي الاعتاب الحسينية . مع تبغ سلامنا لحضرة
 وادنا محمد أفندي الزمر وباقي اخوانكم ودمتم

الفقير

٢٧ الحجة ١٣٩٨

حسن العدوى

خادم العلم بالارهر

عفى عنه

ولا يتوهم من ذلك ان العلماء لم يذهبوا الى مواطن القتال مع الثوار فالحقائق
 تشهد أن رجال الدين كانوا يتنقلون مع جيش الشعب من الاسكندرية الى كفر
 الدوار والتل الكبير . كما تظهر قوة العلماء في الجمعية التي انعقدت بدار الداخلية
 وتليت عليها أوامر الخديوى بإيقاف التجهيزات الحربية والمعاملات العدائية وكيف
 انبسط هذا القاء . أعاد الشكر الاناد . شيخ الاسلام والجامع الازهر وبقه

العلماء بان الحرب مستمرة وانها واجبه للدفاع عن الوطن ودفع العدو عنه وان الذى يرضى بأمر الخديوى ما رق عن الدين ...

بل ان العلماء أفتوا بعزل الخديوى توفيق عندما تقدم لهم استفتاء من عرابي ينصر على السؤال عن حكم رجل استعمله خليفة المسلمين على قطر من الاقطار فانضم الى أعداء المسلمين واستبد برأيه فهل يجوز عزله ؟ وعلى ذلك ختم العلماء بالجواز وفي مقدمتهم الشيخ عليش والخلفاوى والعدوى والامبابي والاشموني . وهكذا فعل العلماء الوطنيون في الثورة العرابية وسمعوا العالم صوت الحق بجانب الجماهير والشعب النائر .

رجال الدين وثورة ١٩١٩

أيقظ الاحتلال البريطاني طبقات الشعب المختلفة وفي مقدمتهم كبار رجال الدين وصغارهم فنهضوا من تحت مصالحة مع المصالح الوطنية فتقدموا الثورة دفاعا عن حقوقهم التي سلبها الاستعمار وكان لهؤلاء الفضل في محاربة فكرة الطائفية فابتدأت الهتافات الشعبية تأخذ صبغة اتحادية بين الصليب واللال . وتمكن رجال الدين من القضاء على دعاية الاستعمار وأعوانه بفضل جهود الشيخ اللبان شيخ علماء الاسكندرية والقمص سرجيوس وغيرهما من رجال الدين وأصبحنا نلح رجال الدين المسيحي يدخلون الازهر حاملين مشاعل الثورة مع اخوانهم المسلمين .

إلا أن الاستعمار لم يعدم أنصاره بين رجال الدين — حتى في هذه الثورة الوطنية العامة فقد انضم البعض الى الانجليز وثروت والمذشقين .

وبعد الثورة المصرية الكبرى لم ز مواقف وطنية واضحة لرجال الدين واسنا نظن أننا سنرى لهم موقفا خاصا بهم فهم لا يمثلون أنفسهم ولا يكونون جزءا منفصلا عن جسم الامة — انهم أجزاء من طبقات في المجتمع — فكبارهم من طبقة كبار الملاك وكبار الرأسماليين وصغارهم من طبقة العمال والفلاحين ! أى أن مواقفهم الوطنية لا يمكن تفسيرها بمعزل عن موقف بقية الطبقة التي ينتمون اليها ! ويمكننا أن نقول أن صغار رجال الدين قد أصبحوا اليوم — شأنهم شأن بقية

الطبقات الشعبية — لا يثقون بالقيادات الرأسمالية السياسية — لأنهم عرفوا بالتجربة أنها ليست جادة في مخلصتها للاستعمار — ولأنهم رأوا الدليل تلو الدليل على أن الاستعمار يراوغ ويراعى فما تروى هذه القيادة . ولا تريد أن توجه الشعب الى حيث يستطيع أن يتحرر ويستقل — ويهمننا أن نعرض لبعض نواحي الحياة الدينية بيننا ولبعض النشاط الذى يقوم به رجال الدين

الازهر والأصلاح

كانت الأسباب الدافعة للفاطميين على تأسيس الازهر أسبابا سياسية ترمى الى تلقين المذهب الشيعى للمصريين ومقاومة الدعوات الاخرى التى تتعارض معه . وقد إتسعت دائرة الازهر على مر القرون حتى أصبح العلماء المتخرجون منه يكونون احدى طوائف المجتمع المصرى .

ففى العصر الاقطاعى كان كبار العلماء إحدى طبقات المجتمع الاقطاعى . يعيشون كغيرهم من أمراء الاقطاع على مجهود العبيد الكادحين . ولما انتقل المجتمع المصرى بسبب الاستعمار الى الطور الرأسمالى — أصبح من الهام الاستعمار أن يخلق طبقة عليا من العلماء .

وما زال يتحين الفرص لذلك حتى تمكن فى سنة ١٩١٥ من تأسيس هيئة كبار معلميها ، التى من لوازمها أن تقسم المرتبات الاضافية وتتولى المناصب الادارية ومشیخة الازهر وعمادة الكليات .

وبهذا الوضع أصبحنا نرى علماء الازهر طبقتين . الاولى لا تقبل فى نعيمها وملذاتها عن أية هيئة مترفة ناعمة غنية . والثانية يجرى عليها ما يجرى على طبقات الشعب الفقيرة من بؤس وشقاء .

على أن التناقض ظاهر بين كبار رجال الدين وصغارهم فبينما نجد كبار رجال

الدين يرتمون في أحضان الاستعمار والرجعيين من أذنا به كالأحزاب الرجعية والمنظمات الفاشية إذا بصغار رجال الدين يكافحون مع الشعب ويعادون الاستعمار والاستبداد ، وينضمون إلى المنظمات الشعبية ، والحركات الديمقراطية ، ويثبون تعاليم دينهم بين الشعب وجماهير الفلاحين حاملين راية الإصلاح إلى قومهم عملاً بقوله تعالى : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » ، وبقوله جل ذكره : « ولتكن أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » .

الأزهر في أمسه : سنة الله في خلقه ونظام الطبيعة في سيرها الشيء يصح ويعمل ويحيا ويموت . دورات مضطردة ، وناموس متعاقب والأزهر ككل شيء في الحياة ، خاضع للتقلبات المختلفة والظروف المتغيرة . فلم تكد الغفوة تلحق بالشرق الإسلامي حتى أصاب رشاشها الأزهر فاذا هو نائم ، وإذا بالفساد يتطرق إلى جميع مرافقه . فالإدارة متهاكة ، والعلوم غامضة مغلقة ، والتأليف صعب ومعقد . وكل ما في الأزهر من علوم تكرير وترديد لما ألف في عصور الإسلام الزاهرة . فالتن كلمات مهوشة وشرحها أغمض منها ، والحاشية مبهمه والتعليقات أبهم منها . والعلم قاصراً على ترديد الألفاظ وتكرير الألفاظ ، والعلماء عاكفون على كتب خالية من روح العلم وجوهر الإسلام . واقفون عند حد التقليد محرومون من الاجتهاد .

وذلك نتيجة للانحطاط العام الذي شمل الشرق في جميع مرافقه .

وما زال الأمر كذلك حتى ابتدأ الشعب في وعيه وتيقظ المصريون إلى حالتهم وابتدأت الثقافات الأجنبية والاختلاط بالحضارة الأوروبية يمتشي بين صفوف المصريين فتيقظ الغافل وانتبه النائم وعند ذلك بدأ الأزهر في الحراك وما هي ذى طليعته الواعية تدرك مسؤولياتها الوطنية والروحية وتعلم أن مصير الأزهر مرتبط بمصير الشعب .

الأزهر اليوم : جدت علوم ، وجدت أحداث واندفع العالم إلى الأمام بخطت الإنسانية قفزات سريعة إلى الحضارة والرقى .

وعلى ربوة عالية جلس الأزهريون يرقبون الأحداث فاختلف اتجاههم في ما يرون

من إصلاح تبعاً لتكوينهم العلى واتجاههم العقلى ، وانقسم الأزهريون إلى أقسام .
(أ) محافظون : وهم يرون أن الأسلم للأزهر أن لا يخرج عن القديم واتباع
السلف من هذه الأمة . وهم يحتفظون بعقالية العصور الماضية وينظرون إلى التطورات
الحديثة بمنظار أسود قاتم .

(ب) حائرون : وهم العلماء الذين جمعوا بين الثقافة الأزهرية القديمة وأخذوا بعضاً
من الثقافة الحديثة هؤلاء يمثلون العقليّة المترددة الحائرة فلاهم تاركون القديم ولا مسار يرون
الزمن في تطوره . بل فضلوا أن يأخذوا الثقافة القديمة مرتبطة مع بعض الثقافة
الحديثة ومنهم من جمعوا بين الثقافتين الغربية والشرقية ، إلا أنهم لم يأخذوا من الثقافة
الغربية إلا ما يوافق نشأتهم وتربيتهم الدينية ويمثلون العقليّة المتقدمة الحائرة ويتجهون
في إصلاحهم إلى تحسين حالة الأزهر العلية وبث بعض الثقافات الغربية التي لا تتنافى
مع الدين بين الأزهريين . وهم أصحاب البحوث الأجنبية كالـ دكتور الشيخ محمد البهى
والشيخ الدكتور عبد الحليم محمود وغيرها .

(ح) أحرار : لا وراء في أن البحوث الأحرار من رجال الدين تختلف عن غيرهم من
سائر طوائف الباحثين والمصلحين وذلك لأنهم لا يخذعون بزخرف الأقوال ولا
يساريون السطحية في الأعمال . بل هم يبحثون عن الجذور والأسباب المنعكسة من
ظاهر المجتمع حتى تأخذ إصلاحاتهم الصبغة الواقعية . وبذا يتفادون الوقوع في
الاطّاء التي تعرض لها بقية المصلحين الذين ينظرون إلى الأزهر كشئ منفصل عن
المجتمع الذى نعيش فيه .

وفي الواقع أن مشكلة الأزهر يجب أن لا تفصل عن مشاكل المجتمع المصرى
ومشكلة التعليم فى الأزهر ما هى الا جزء من المشكلة التعليمية العامة .

ومن الاخطاء التي تلجأ إليها الرجعية المصرية فى التعليم أنهم يتجهون إلى دراسة
التعليم باعتباره أداة منفصلة عن المجتمع الذى يوجد فيه وأن التعليم فى الأزهر يمكن
له أن يرقى فيما لو اعتمد على نهضات روحية وإبراز كامن الأخلاق وبعث المثل العليا
بواسطة الألفاظ المنمقة ، والعبارات المزخرفة التي تلقى بواسطة الرجميين فى خطبهم

وكتبهم ونشراهم مع علمنا بأن الحقائق المستمدة من الدراسة التاريخية الصحيحة تؤكد أن طريقهم عقيمة وتفكيرهم معوج . إذا أن تطور المجتمع في عمومته وتقدم التعليم بصفة خاصة يتبع التطور في الأحوال الاقتصادية لهذا المجتمع .

ان الانحلال والفساد الواقع في التعليم المصري عموما فالأزهر خصوصا ما هو الا انعكاس للتفكك والاضطراب السياسى وهذا التأخر والانفكك السياسى انعكاس بدوره للفساد والفوضى والانحلال الاقتصادى في هذه البلاد فنحن في مصر مازلنا في زراعتنا نستعمل أساليب قدماء المصريين الأولية وأنت ما تزال تنظر في مصر المحراث والفأس والسكر الأحمر والحلويات المصنوعة من المصل الأسود بما يذكرنا بعهد الانسان في عصور الاقطاع والعبودية .

والمتتبع لحركة الأزهر العلمية . يجد أنها خاضعة في سيرها وتطورها لظروف حياتنا في اللحظة التي كان الاقتصاد المصري يخضع فيها لنظام الاقطاع كانت الحركة العلمية في مصر ترمى الى اخراج طائفة من العلماء يشبهون رجال الاقطاع في أقليتهم مع تحكمهم في العبيد الاقطاعيين وكانت السياسة التي يرمى اليها التعليم في ذلك الوقت الخد من التعليم والانصراف به الى الناحية الروحية .

وفي المدة التي انتقل فيها المجتمع المصري إلى الرأسمالية وتقدم الاقتصاد المصري واتجهت نظرة الاحتلال إلى اخراج جماعة من المتعلمين للوظائف الحكومية وأعمال الادارة تحولت النظرة الازهرية تبعا لذلك إلى اخراج جماعة لتتولى المناصب التي استجدت في البلاد وأصبح الناس في الأزهر يأملون في الوظائف والمناصب واتجهت سياسة الازهرين إلى جعل الأزهر معبدا للتخريج والتوظيف مع فساد البرامج الازهرية والطرق التدريسية حتى تكسب المتخرجون وعم البلاد بجوار الجيش العاطل من الفلاحين والعمال والطلاب جيش من الازهرين العاطلين .

أما في أيامنا الحالية فان خضوع الاقتصاد المصري لسياسة الاستثمار وانحلال الاداة الحكومية وفسادها يجعل النظرة التعليمية لا تخرج في اتجاهها عن أيام الاحتلال من اخراج جماعات للتوظيف من غير وظائف كما أن التفكك والانحلال السائد في الطلبة الازهرين وظهور روح العصبة القبلية بين أبناء الوجهين القبلي

والبحرى وارتقاء بعض رجال الدين فى أحضان الأحزاب الرجعية إلى غير ذلك من أنواع الفساد والقوضى فى الأزهر يعزى أساسيا إلى التفكك الفكرى العام الذى يتغلغل فى سائر نواحي الحياة نتيجة التفكك الاقتصادى .

ثم إن الحياة التى تحياها الهيئات المتعلمة فى الأزهر مضطربة فقيرة فى مستواها العام والآن وقد بدأ المجتمع المصرى يتطور تطورا طبقيًا واضحًا بينما وجدت فى البلاد بعض الأموال والمواد الخام التى تمكنها من السير وإنشاء بعض الصناعات التى تحتاج إليها ووجود حركات عمالية وسياسية متقدمة كل هذا يجعل التيار الفكرى فى الأزهر متجها اتجاه التطور الاجتماعى والسياسى والعلمى . وسيتبع ذلك تغير فى الاتجاه التعليمى فى الأزهر وفى غيره حتما .

ونحن رجال الدين الأحرار — ننظر فى منهجنا الإصلاحى التعليمى إلى ناحية التطور الاجتماعى الذى تجتازه البلاد فى هذه الأوقات وإلى الناحية الديمقراطية فى الميدان السياسى . وندعو إلى التوسع فى تطبيق الديمقراطية التى تسمى إليها الشعوب فى سائر أنحاء العالم . . . ونؤمن أن أهلنا ومواطنينا وأخواننا أن يتمتعوا بتعليم صحيح إلا إذا ضمنت لهم حياة ديمقراطية حققة ، فالواجب علينا أن نراعى فى إصلاحنا للأزهر ناحية التطور الاجتماعى والديمقراطى . فنعمل على توسيع معاهد التعليم فى البلاد وتنويع المواد التى تدرس فى الأزهر فلا تقتصر على الفقه والنحو والتوحيد وعلوم الدين بل يجب أن ندرس إلى جانب ذلك كل ما يتعلق بالعلوم الزراعية والصناعية التى تحتاجها البلاد وتطلبها الحياة فلا يقتصر الأزهر على كليات أصول الدين والشريعة واللغة العربية بل عليه أن تكون له كليات للطب والهندسة والتجارة والصناعة وأن تدرس علوم التاريخ والمذاهب الاجتماعية والسياسية ونحن نعلم أن الإسلام لم يطلب منا إخراج الأئمة للوعظ والإرشاد بل طلب منا أن نعمل للدين والدنيا وأن نرشد ونعمل لدنيانا كأننا نعيش أبداً ولآخرتنا كأننا نموت غداً ، وأن نحسن ولا ننسى نصيبنا من الدنيا .

والناظر فى الإسلام يرى أنه فى جميع أوامره ونواهيه يجمع بين الناحيتين الفكرية والمادية وكل ما ورد من القرآن فهو إما لتنظيم العلاقة بين العبد والرب أو بين

الانسان والانسان . فمن الخطل والجهل أن نقف عند حد الروحيات ونملا الأزهريون
بجماعات تتعلم العلوم النظرية ثم تأتي بعد أن تقضى عمرها في تعليم الكلمات المعقدة
لتسأل الدولة ثمن الحياة .

فيا أيها الأزهريون . . . أيها الوعاظ والخطباء في المساجد . . . يا رجال الدين
أنتم أبناء الشعب وأخوة الكادحين . أنتم أبناء العمال وسلالة الفلاحين . أنتم حملة
المشاعل في الريف وقادة الفقراء . أنتم أبناء الذين أريق دماؤهم وألهمت السيوط
ظهورهم من قديم التاريخ . أنتم أبناء الذين صنعوا الحياة فساووها وخلقوا القوة
ليحرموها أنتم أبناء الحياة وأنتم من خير ما في الحياة .

يا أبناء الأزهريين . الفقر . الجهل . المرض . أمراض ثلاثة تنخر في جسام آبائكم
وإخوانكم وعشيرتكم وأقاربكم . وهم لا يعلمون لجهلهم ما أسبابها ومادوافعها .
فاعدلوا جهدكم على تفهيمهم أسبابها وتعليمهم مكافحتها وأفهموهم أن عدوهم
الأول الاستعمار وأن أنصاره وأذناؤه من الرجعيين يريدون إبقاءه في مصر كي
ينعموا على حساب الشعب .

يا رجال الأزهريين تقدموا مع المثقفين المخلصين الصفوف انفضوا في الشعب روح
الخلاص واعملوا على تحطيم قوى الشر ودحر الاستعمار .

يا رجال الدين . حياة أهلنا وإخواننا وحياتنا لا تصلح بغير الحرية والاستقلال
والاستقلال لا يأتي إلا بالكفاح الشعبي الديمقراطي — فقفوا مع الشعب وأيدوا
نضاله الديمقراطي ، وخذوا نصيبكم من هذا الجهاد التاريخي — كما أخذ أبائكم
وأسلافكم من قبل — وقل اعلموا فسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم
الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) .

يا أيها الأزهريون . يحاكم الأحرار لأنهم يريدون أن ينبروا الأذهان وتعرقل
الهيئات الديمقراطية لأنها أخطر قوة على الاستعمار . . . فأيدوا الأحرار في كفاحهم
وأيدوا الهيئات الشعبية في نضالها . واهتفوا معي

ابسقط الاستعمار

ومحيا الشعب المصري حرا